الدبلوماسية الثقافية عند ابن خلدون
ودورها في التقارب بين الشعوب

الباحثة: د. فاطمة عيسى محمد
دولة الإمارات العربية المتحدة

ورقة عمل للمشاركة في
المؤتمر العالمي الرابع للدبلوماسية الثقافية

رأس الخيمة من 26-27/2/2024

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم..

إن الدول العظمى استخدمت القوى الصلبة في نزاعاتها على مر العصور إلى الثمانينات من القرن الماضي ، ومع بداية التسعينيات بدأت في تغيير نمط سياساتها في محاولة لاستعادة مجدها ، ومن خلال مراكز الأبحاث المختلفة توصلت إلى فكرة التخلي عن نمط القوى الصلبة إلى الاعتماد على القوى الناعمة في استعادة سيطرتها وظهور ما يسمى بالدبلوماسية الثقافية .

ومع نهاية الحرب العالمية الثانية أدرك السياسيون أهمية التوجه إلى تكوين علاقات دبلوماسية وأنماط ثقافية متنوعة تعتمد على العلاقات الدولية ، فلم تعد القوة العسكرية وحدها تجدي نفعاً، بل أدركوا أهمية الثقافة في بناء جسر التقارب والتواصل بين الشعوب .

ما أدى إلى تقلص الكثير من الفوارق بين الشعوب خاصة مع الثورات التكنولوجية والتواصل الرقمي الذي انتشر كانتشار النار في الهشيم ، فلم يعد هناك مجال لفرض القوة العسكرية لوحدها كما كان في السابق ، حتى أصبح العالم يمثل قرية صغيرة تتواصل الكترونياً خاصة مع تطور التواصل الرقمي وصولاً إلى عالم الميتافيرس، والذكاء الاصطناعي.

فأصبح للثقافة دور كبير في تشكيل العلاقات الدولية، وأصبح محور اهتمام الدول قائم على التبادل الثقافي والاهتمام بالعلاقات الإنسانية والإعلام الالكتروني وتقديم الخدمات والمساعدات التي تمثل التأثير القوي على علاقات الدول في شتى المجالات، بل تترك أثراً ايجابياً على نقيض ما تتركه القوى العسكرية.

ولعلنا نسترجع أصل الدبلوماسية الثقافية التي تتمثل في بعثة نبينا موسى عليه السلام عندما طلب من ربه أن يبعث معه أخاه هارون لأنه أكثر منه فصاحة ، في قوله تعالى:

" وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ"
(القصص: 34)

فموسى عليه السلام وأخاه هارون مثلا الدبلوماسية الثقافية ، في وفد ثقافي شاركا في نقل الرسالة إلى بنى إسرائيل ، والاستعانة بهارون لأنه يحمل المميزات التي تؤهل نجاح الوفد الثقافي وتحقق أهداف الدبلوماسية الثقافية ، وهذا يعنى ضرورة حسن اختيار الممثلين الدبلوماسيين لنشر الثقافة الدبلوماسية .

ثم مثل لنا الرسول صلى الله عليه وسلم نموذجاً للقائد الحريص على التمكين من خلال الدبلوماسية الثقافية والقيام بإرسال الرسل والكتب للبلاد المختلفة في الشرق والغرب للتعريف بالرسالة الجديدة والدعوة إلى الإسلام، والحرص على بناء علاقات وطيدة بالجوار بالحكمة والموعظة الحسنة.

ولاشك أن التاريخ الإسلامي أثبت لنا أسبقية المسلمين في نشر هذه الثقافة وبناء العلاقات الدبلوماسية لتكون دعامة لتأسيس الدولة الإسلامية الأولى، واستمر الصحابة والتابعين من بعد على هذا النهج .

وفي حقبة من التاريخ تشدق المسلمون بالثقافات الغربية رغبة في التقليد، وهاهم يعودون أدراجهم لأصل هذه العلوم والثقافات المتأصلة في دينهم وتاريخهم الإسلامي .

ابن خلدون (1406 -1332م):

هو عبدالرحمن بن خلدون، المغاربي المسلم، من أصل حضرمي ، ولد في تونس ودرس العلوم المختلفة في جامعة الزيتونة، وهو ابن الخامسة عشر من العمر ، وتولى العديد من المناصب السياسية وهو في العشرين من عمره، يعد أحد رواد التاريخ الحديث و علم الاجتماع والاقتصاد كما درس الفقه والحديث والعلوم التجريبية ، فكان نابغاً من نوابغ البشرية في التاريخ الإسلامي ، واشتهر بالمقدمة التي عرفت باسم مقدمة ابن خلدون، ومثلت دستوراً في العلم والدين والسياسة، اقتفى أثرها العديد من السياسيين بالرغم من مضي حوالى ستة قرون على وفاته ، لكنه ترك خزانة من العلم والمعرفة ، وسبقت مقدمته ما تعارف عليه العلماء واكتشفوه بعد قرون من وفاته.

أطوار حياة ابن خلدون:

كان ابن خلدون رجل سياسة منخرط أمضى حياته في بلاط السلاطين في تونس والجزائر والمغرب وغرناطة والقاهرة.

قسمت حياة ابن خلدون وفكره إلى مجموعة من الأطوار:

- الطور الأول : يشمل العشرين سنة الأولى من حياته، التى قضاها في التعلم والمدارسة.
- الطور الثاني: طور المغامرات السياسية كما أطلق عليه، قضاه بين المغرب والجزائر والأندلس واستمرت مدة 22عاماً.
- الطور الثالث: مرحلة العزلة السياسية والتأليف داخل قلعة ابن سلامة في الجزائر، مدة أربع سنوات.
- الطور الرابع: كان في القاهرة وهو مرحلة التدريس والقضاء وتنقيح كتابه، لمدة أربع سنوات أخرى، إلى وفاته.

ويعتبر كتاب المقدمة تمهيداً لكتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر). ويضم الكتاب إلى جانب المقدمة ستة مجلدات أخرى، قال ابن خلدون عن كتابه:

(أتممت هذا الجزء الأول، المشتمل على المقدمة، بالوضع والتأليف قبل التنقيح والتهذيب، في مدة خمسة أشهر آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبعمائة (779 هـ). ثم نقحته بعد ذلك وهذبته وألحقت به تواريخ الأمم، كما ذكرت في أوله)

قال البوزيدي :

انتبه الأوربيون إلى قيمته العلمية لكتابات ابن خلدون ، حيث قام المستشرق(فوك هامار) بترجمة أعماله، وتناول بالدراسة التحليلية فلسفة ابن خلدون بخصوص المجتمع والعصبية والدولة، وتحدث فيها كذلك عن الاقتصاد الاجتماعي، وانطلاقا من هذه النظرية الخالدة، وأظهر علماء أوروبا وفلاسفتها إعجابهم واعترافاتهم بتفوق هذا الفيلسوف العربي.

وترجم مؤلفه (العبر) إلى عدة لغات ، منها الفرنسية ، والإسبانية ، والروسية، والبرتغالية عام 1841م بعد أن تنبهوا لقيمة هذه الثروة العلمية التي ورثوها من العرب.

الثقافة الدبلوماسية عند ابن خلدون:

اعتمد ابن خلدون على بعض الأفكار التى تمثل أهمية في الدبلوماسية الثقافيةو ،هي :

1. **العصبية :** حيث أكد ابن خلدون على دور العصبية كقوة مُحركة للتماسك الاجتماعي والسياسي.
2. **التعصب:** حذر ابن خلدون من عقبات التعصب ، الذى من شأنه أن يعيق جهود التواصل بين الثقافات المختلفة.
3. **التبادل الثقافي :** شجع ابن خلدون على التبادل الثقافي كوسيلة لتعزيز التفاهم والتعاون بين الحضارات.
4. **اللغة:** يؤكد ابن خلدون على أهمية دور اللغة كأداة أساسية للتواصل بين الثقافات.
5. **الدين :** وأشار في مقدمته كذلك إلى دور الدين في تشكيل الثقافة، وضرورة احترام التنوع الدينى.

- **قال : "المغلوب مولع أبدا في كثير من الأمور بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده"**

وهو مادرجت عليه الكثير من الدول في التاريخ الحديث من تقليد واقتداء للجناح الغربي الغالب حتى انغمس الشباب في الثقافة الغربية أينما انغماس، فقال : (لذلك ترى المغلوب يتشبّه أبدا بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتّخاذها وأشكالها بل وفي سائر أحواله وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبّهين بهم دائما وما ذلك إلّا لاعتقادهم الكمال فيهم)

- **" انفراد الحكام بالمجد يذهب بالدولة إلى الهِرم"**

حيث عاصر ابن خلدون عصر الانحطاط واندثار الحضارة الإسلامية وشهد الكثير من الخلافات السياسية في تلك العصور، فقد شهد عصر الموحدين بتونس، واضمحلال الدولة الإسلامية في الأندلس وذهاب مجدها بسبب انشغال الحكام بأمجادهم وبعدهم عن الرعية، واعتمادهم في الملك على القوة ، وكذلك ما تعرض له من محن ودخوله السجن بسبب الفتنة وسجنه في فاس، وكتب المقدمة وهو سجين في أحد قلاعها ، كما أن الاضطرابات

النفسية التى تعرض لها في مصر وغرق عائلته في البحر ، جعلته يعتزل الحياة السياسية، وينكب على التأليف والكتابة.

عاصر ابن خلدون العديد من السلاطين، ونال الكثير من الرتب السياسية ، وتعرض للحسد والوشاية ، ولعل موقف ابن خلدون مع سلطان المغول (تيمولنك) أثار الجدل حوله ، حيث أخفض له جناح الذل وقبل يده وأدى له الولاء والطاعة ، كما أهدى إليه نسخة من قصيدة البردة للبوصيري، حيث أثار موقفه هذا الجدل حوله في حينها؛ لكن اعتبر أصل من أصول الدبلوماسية الثقافية، وقد علل موقفه بأنه كان ضرورة من أجل حقن دماء المسلمين.، وهو في هذا الموقف يذكر لنا درساً في الدبلوماسية الثقافية قبل قرون .

كما يقول ابن خلدون :

- (ينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن، ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر، ويبلغ فيهم الترف غايته بما (تقلبوا فيه) من النعيم وغضارة العيش، فيصيرون عالة على الدولة، ويفقدون العصبية بالجملة، وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة)

لأنه أدرك أن من أسس قيام الدولة وقوتها التعاضد بين الدولة والشعب ، فالكل يسعي لتحقيق نفس الهدف من حماية البلاد وتحقيق استراتيجيتها (العصبية) ، لأنه يرى بأن العصبية أساس القوة ، فإذا ما اتسعت الفجوة بين الدولة والشعب ، وأصبح الترف والمجد هم الدولة دون النظر لمصالح شعبها ، كان ذلك مظنة الانهيار والسقوط، ولعلنا نرى أن التاريخ يعيد نفسه فيما آلت إليه حال بعض شعوبنا العربية في العصر الحديث.
ورحم الله الشيخ زايد بالرغم من أنه كان أمياً إلا إنه كان ذا فكر ثاقب بنى دولة الإمارات بهذا الفكر حتى توارثته الأجيال وأصبح من أهم أسباب تقدم البلاد، وكان الاتحاد ومازال نموذجاً يحتذى به.

ختاماً:

أصبحنا ندرك أهمية العمل بالدبلوماسية الثقافية، والقوة الناعمة في تمكين الدول في عصرنا الحالي ، العصر الرقمي ، وقد عرف جوزيف ناي القوة الناعمة بأنها سلاح مؤثر يحقق الأهداف عن طريق الجاذبية والإقناع بدل الإرغام أو دفع الأموال، وموارد القوة الناعمة لأي بلد هي ثقافته .

وذكر د. حمد الكواري في كتابه (بعض مني) : بأن (الدبلوماسية الثقافية ترتكز على المعرفة باعتبارها طريقا إلى تبادل الثقافات بين الشعوب فإن المعرفة تنهل من الآداب العالمية "ولنا أن نتعرف بأن الآداب ساهمت في تحقيق التواصل الثقافي منذ العصر اليوناني، والنهضة العربية، والأوروبية حتى نهايات القرن العشرين).

وقال بعد أن أمضى أكثر من نصف قرن في مجال الممارسة الدبلوماسية والثقافية أيقن أن مزايا التواصل الثقافي بين الشعوب صمام أمان لها على اختلاف اتجاهاتها الفكرية وتنوع أجناسها ولغاتها، وبين مكانة الثقافة ودورها في الحياة المعاصرة، ومانحا لها دورًا دوليًا جديدًا، إذ لم تعد قوة الدول تقاس بقوة اقتصادها أو حضورها السياسي والعسكري فحسب، وإنما بمدى قدرة ثقافتها على إنشاء العلاقات في ما بينها.

التوصيات:

الاهتمام بالثقافة الدبلوماسية والقوى الناعمة.

- الاستفادة من تجارب الدول في مجال الدبلوماسية الثقافية.
- فتح المجال للنخب الثقافية لتقديم تصور يمكن تنفيذه في مجال الدبلوماسية الثقافية.
- مراجعة ما في تاريخنا الإسلامي من مجالات التبادل الثقافي الذي كان له الدور في نشر الإسلام في أوربا.
- الاستفادة من تجارب دولة الإمارات في نشر الدبلوماسية الثقافية مثل توفير المجال للابتكار وترسيخ ريادة الأعمال، والتسامح علي أرضها، وبناء علاقات تقوم على الاحترام المتبادل والسلام بين شتى أقطار المجتمع الدولي.

- دعم المشاركة في مجالات المستقبل التي تقوم على مجالات الثورة الصناعية الرابعة، والاهتمام بالحاضنات الابتكارية التي تنبى اقتصاد معرفي قوي.
- ضرورة المحافظة على خصوصية الموروث الثقافي والتراثي، في ظل ما نشهده من الانفتاح الفكري والثقافي على العالم.

المراجع :

1 - عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، الطبعة الأولى، دار الفكر ، بيروت، 1981.

2 - عبد الغني مغربي، الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، ترجمة محمد الشريف بن داي حسين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1988.

3 - محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون العصبية والدولة -معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة السادسة، بيروت 1994.

4 - https://doc.aljazeera.net/ ابن خلدون رجل السياسة والتاريخ، مقال يونس مسكين 2021.
5 - https://www.habous.gov.ma/daouat-alhaq/item/7647 مجلة دعوة الحق ، العدد -297/ مقال علال البوزيدي 1993

الملخص:

مع نهاية الحرب العالمية الثانية أدرك السياسيون أهمية التوجه إلى تكوين علاقات دبلوماسية وأنماط ثقافية متنوعة تعتمد على العلاقات الدولية ، فلم تعد القوة العسكرية وحدها تجدي نفعاً، بل أدركوا أهمية الثقافة في بناء جسر التقارب والتواصل بين الشعوب .

ما أدى إلى تقلص الكثير من الفوارق بين الشعوب خاصة مع الثورات التكنولوجية والتواصل الرقمي الذي انتشر كانتشار النار في الهشيم ، فلم يعد هناك مجال لفرض القوة العسكرية لوحدها كما كان في السابق ، حتى أصبح العالم يمثل قرية صغيرة تتواصل الكترونياً خاصة مع تطور التواصل الرقمي وصولاً إلى عالم الميتافيرس، والذكاء الاصطناعي .

فأصبح للثقافة دور كبير في تشكيل العلاقات الدولية، وأصبح محور اهتمام الدول قائم على التبادل الثقافي والاهتمام بالعلاقات الإنسانية والإعلام الالكتروني وتقديم الخدمات والمساعدات التي تمثل التأثير القوي على علاقات الدول في شتى المجالات.

ولعلنا نسترجع أصل الدبلوماسية الثقافية التي تتمثل في بعثة نبينا موسى عليه السلام عندما طلب من ربه أن يبعث معه أخاه هارون لأنه أكثر منه فصاحة ، في قوله تعالى:

" وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ"
(القصص: 34)
فموسى عليه السلام وأخاه هارون مثلا الدبلوماسية الثقافية ، في وفد ثقافي شاركا في نقل الرسالة إلى بنى إسرائيل ، والاستعانة بهارون لأنه يحمل المميزات التي تؤهل نجاح الوفد الثقافي وتحقق أهداف الدبلوماسية الثقافية ، وهذا يعنى ضرورة حسن اختيار الممثلين الدبلوماسيين لنشر الثقافة الدبلوماسية .

ثم مثل لنا الرسول صلى الله عليه وسلم نموذجاً للقائد الحريص على التمكين من خلال الدبلوماسية الثقافية والقيام بإرسال الرسل والكتب للبلاد المختلفة في الشرق والغرب للتعريف بالرسالة الجديدة والدعوة إلى الإسلام، والحرص على بناء علاقات وطيدة بالجوار بالحكمة والموعظة الحسنة.

ولاشك أن التاريخ الإسلامي أثبت لنا أسبقية المسلمين في نشر هذه الثقافة وبناء العلاقات الدبلوماسية لتكون دعامة لتأسيس الدولة الإسلامية الأولى، واستمر الصحابة والتابعين من بعد على هذا النهج .

نابغاً من نوابغ البشرية في التاريخ الإسلامي ، واشتهر بالمقدمة التي عرفت باسم مقدمة ابن خلدون، ومثلت دستوراً في العلم والدين والسياسة، اقتفى أثرها العديد من السياسيين بالرغم من مضي حوالى ستة قرون على وفاته ، لكنه ترك خزانة من العلم والمعرفة ، وسبقت مقدمته ما تعارف عليه العلماء واكتشفوه بعد قرون من وفاته.